مدرسة القاضي يحيي

بقلم الاستاذ المحقق محمود احمد المرتضى

المدير الفني لمجلة حفظ الآثار العربية

القاضي يحيي نزيه الدين — هو يحيي بن عبد الرازق الزين القبطي القاهري الاستادار . ابن أخت نقيب الجيش محمد بن أبي الفرج المعروف بالأشقر

ولد في أوائل القرن التاسع بالقاهرة ونشأ بها فتدرب في المناصب الديوانية على كتبة الأقباط وخدم في عدة جهات ثم ولي نظر ديوان المفرد (وهو ما كان يشبه الدائرة السنية عندنا) أكثر من مرة فلم يوفق وتكرر عزله عنه فكان يخلفه فيه ندٌ ومناظرٌ عبد العظيم بن صدقة الذي تفوق عليه مراراً فكانت النتيجة أن انفرد به وحده بعد اشتراكهما فيه وفي وظيفة كاتب السر . وما من مرة عزل فيها القاضي يحيي الا وتراكمت عليه الديون تراكما حتى اضطر أخيراً الى السعي لتقلد منصب نظر الاسطبل السلطاني مقابل مبلغ من المال يدفعه الى الوسيط . فنجح المسعى وعين في هذا المنصب خلال سنة ٨٣٢ هجرية عوضاً عن فرج كاتب المماليك . لكنه ما لبث أن عزل وخلفه أبو المنصور نصر الله ألوزه . فلزم داره وحاق به الفقر وتراكمت عليه الديون . وظل النحس ملازمه الى أن ولي الاستادارية ، قير طوغان العلائي سنة ٨٤٤ هجرية عوضاً عن محمد بن أبي الفرج فكان مما اشترطه لقبولها اعادة يحيي الى وظيفته في ديوان المفرد . فأعيد مكان منافسه عبد العظيم السالف الذكر ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن قير طوغان اعتقل عبد العظيم وزميله ابن أبي الفرج وساءهما العذاب . وهنا يسم الدهر لصاحب الترجمة فكان موضع ثقة الاستادار ومعينه وبلغ به الأمر أن سدد عنه ديونه . وأعز من شأنه حتى أعاد اليه سابق وجاهته وعزه .

كان المنتظر أن يحفظ يحيي للاستادار فضله وجميله على الأقل . لكنه عمل على العكس تماماً حيث أخذ يكيد له وزاد فحسن له طلب الاستعفاء من وظيفته ، فظن الاستادار هذه النصيحة في مصلحته فسعى حتى أقال نفسه بنفسه . وهنا خلفه الزين عبد الرحمن بن الكويز . وعمل مع صاحب الترجمة في ديوان المفرد . فلم يمكث كثيراً بل كاد له يحيي حتى أقاله وانفرد بالأمر سنة ٨٤٨ هجرية فأقبلت عليه الجنود خصوصاً

بعد ما عهد اليه الملك الظاهر جقمق برياسة ديوان الحسبة ووثق به فأرخى له العنان وصار لا يسمع فيـــه كلمة واش من الوشاة . فأثرى وطغى فى الظلم والعسف والاستيلاء على ضياع ومرتبات خصصت للمساجد وغيرها وصادر أموال الأغنياء من الفلاحين والمشايخ وغيرهم وابتكر مظالم وأموراً لم يسبقه اليها أحد قبله . ولما تكدست فكر فى التقرب الى الله ببعضها فأنشأ مسجداً ومدرسة كما أنشأ عمائر أخرى كالحمامات والأسبلة والمغاسل والربط . ثم التفت إلى أتباعه وحاسبهم فرق الكثير منهم .

والى هنا توفى الظاهر جقمق وخلفه ابنه السلطان المنصور عثمان — وكان موصى من أبيه على يحيى — فنبذ الوصية وعمل على مصادرته مراراً ثم حبسه وضربه وأذله ونفاه . فقاسى من الشدائد والأهوال أشكالا وألواناً . خصوصاً بعد ما أخذ منه المنصور نحو مائة ألف دينار وطالبه بغيرها فاضطر الى حمـــل كثير من أوقافه ليسدد ما طلب منه فى نحو عشرين مصادرة .

وهنا جاء دور الملك الأشرف قايتباى الذى أخرجه من بيته وصادره مرة بعد أخرى وسجنه بأحد أبراج القلعة ثم أعاد ضربه إلى أن أشرف على الموت وأعيد الى البرج ثانية . — وعوجل على غير جدوى فمات بالبرج فى يوم الخميس ١٢ ربيع الأول سنة ٧٧٤ هجرية ، عفا الله عنه وعنا . ودفن بمدرسته التى نحن بصددها

* * *

وللقاضى يحيى ثلاث منشآت بالقاهرة (الأولى) مسجد بشارع الحبانية المتفرع من شارع محمد على وتقام بهذا المسجد الشعائر الآن وبجواره مدرسة أولية متواضعة تعرف بمدرسة القاضى يحيى (الثانية) مسجده بشارع « وكالة الخروب » ببولاق وهذا المسجد المعروف الآن بجامع المحكمة . (الثالثة) هى المدرسة الواقعة بشارع بين النهدين والمجاورة لمتجر (عمر أفندى) القديم

وهذه المدرسة كغيرها من المدارس الأخرى أنشئت فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨٤٨ هجرية — أغسطس وسبتمبر سنة ١٤٤٤ ، على الطراز المتعامد المكون من صحن مكشوف تحيط به أربعة ألوية (جمع ليوان) كل لوانين متقابلان ومتماثلان ، وكل لوان من هذه الألوية مخصص لتدريس أحد المـــذاهب الاربعة وأكبرها هو ليوان المحراب

ومن مميزات هذه المدرسة المنارة الرشيقة التى تتوجها . فهى فضلا عن أناقتها وجمالها قد ادخل فى بنائها عنصر جديد لم يكن معروفا فى بناء المنائر وهو الرخام فقد

وصعت الدورة الوسطى المثمنة من هذه المنارة بقطع من الرخام الملون المجمع على أشكال هندسية .

وعلى الرغم من أن مدرسة برقوق بالنحاسين قد سبقتها فى هذه الميزة ، الا أنها تكن مثلها فى الرشاقة وجمال التكوين .

هذا ، الى أن بواجهتها الشرقية (مشربيات) من الخشب دقيقة الصنع . ومضاف أبوابها وشبابيكها مقسمة تقسيما (بلديا) لا غبار عليه

وقد أقيمت فى هذه المدرسة كما سبق لنا القول ، مقبرة منشئها متصلة بها كل الاتصال ؟

محمود احمد المهندس

المدير الفنى للجنة الآثار العربية

رجـــل العـــلم

تلقينا من حضرة الدكتور الفاضل ح . أبو السعود كلمة قيمة تضمنت نصائح لرجال التعليم نقتطف من هذه النصائح مايلى :

١ — رجل العلم يجب أن يكون صادقا مستقيما اذ أن النواميس الطبيعية صادقة لا تتغير ولا تتبدل . سلسلة من الحديد حلقاتها حقائق ثابتة — لا تبديل لكلمات الله

فاذا أردت أن تتفهم تلك الكلمات وتلك النواميس الطبيعية . يجب عليك أن تكون رجل صدق ورجل حق

٢ — رجل العلم : عليه أن يتعمق فى معلوماته ولا يكتفى بالقشور ، ادخل بزورقك الى عرض البحر اذ على الشاطئ . خطر هكذا قال الملاح الحرم الى آخر حديث عهد — على الشاطئ . صخور وأمواج تتلاطم فتتحطم ولكن فى عرض البحر لاصخور ولا أمواج متلاطمة — عمق وسكون وأمان . فقليل العلم تدفع به قشوره فيتحطم . أما غزير العلم والمعرفة فهو فى مأمن حيث لاصخور ولا أمواج . يجرى الماء العميق تحته فى هدوء .

٣ — على رجل العلم أن يكون متنبها — النواميس الطبيعية لانعرف منها الا القليل ، التكون ملآن بكثير منها لم نصل لمعرفته — فعلى رجل العلم أن يكون فطنا — الطبيعة تشير الينا وتهمس فى آذاننا عن مبادئ . أسرارها فعليك أن تكون متيقظا كى تلتقط منها ناموسا لانعرفه تستخدمه فى مصلحة الانسان

دكتور

ح . أبو السعود